ويمكننا أن نقول: إن لغة التنزيل والشعر القديم جاهليّه وإسلاميّه، وما أثر من الأمثال الجاهلية، كل أولئك كان المادة التي احتج بها البصريون في وضع أصول العربية. ولم يكن الكوفيون بعيدين عن هذا النهج في نحوهم ولغتهم، على أن عامة النحويين الأوائل من كلا المصرين قد استبعدوا الحديث في احتجاجهم.

وقد يكون لنا أن نقف وقفة خاصة على الأصول التي اعتمدها البصريون التي لم ينظروا إليها على نحو ما كان لهم من ذلك. لقد اعتمدوا لغة التنزيل، ولكنهم ضيقوا في هذا أشد الضيق، فلم يأخذوا بقراءات عدّة وهي شيء من العربية، ولها أساس في لغات العرب، فقد حملوا على الخطأ قراءة عبد الله بن عامر مقرىء أهل الشام في قوله تعالى: ﴿ وكذلك زُيِّن لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركائهم ﴾ بنصب «أولادهم» وجر «شركائهم». والخطأ المزعوم في هذا أنهم يمنعون الفصل بين المتضايفين (المضاف والمضاف إليه) في غير ضرورة الشعر. فلم يقبلوا قراءة ابن عامر مع علمهم أن للقراءة سنداً متصلاً، وأن القراءات السبع مما يجب أن يؤخذ به وهي حجة قائمة.

ومثل هذا ذهابهم إلى تخطئة «معائش» بالهمز في قراءة نافع في قوله تعالى: ﴿ لهم فيها معائش ﴾، وحجتهم في التخطئة أن الياء في «معايش» أصلية لأنها من المدّ في «معيشة»، والمدّ الأصلي لا يبدل همزة.

أقول: ولم يكترثوا بهذه القراءة، وكأنّ نافع ابتدعها وليس له من سند يوصلها إلى الرسول ﷺ. ولو أنهم توسعوا في فهم العربية لأدركوا أن العربية تجيز هذا، ألم يقولوا «مصائب» جمعاً لـ «مصيبة»، ولم يُسمع فيها «مصاوب» كما تقتضي القاعدة.

ومن الشواهد المعروفة في تخطئتهم للقراءة ما كان منهم في قراءة